

لغتنا الثقافية ولغتنا الإعلامية

الدكتور حسام الخطيب

ويمكن القول ان هذا الاتجاه المنهجي تدعم تماما في بلد مثل بريطانيا على يد الناقد الأديب ريموند ويليامز الذي أعطى مثلا نسبة عالية من صفحات كتابه (المجتمع والثقافة Culture and Society) (٢) لتحديد المصطلحات والمفاهيم الأساسية في دراسته لتطور الثقافة الانكليزية بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن العشرين، وعني خاصة بتحديد الكلمات التالية: الصناعة، الديمقراطية، الطبقة، الثقافة.

وبالطبع، ليس المطلوب من الانسان ان يؤسس معاني جديدة للمصطلحات والمفاهيم إلا إذا كان ذلك غرضه الأساسي من البحث، وحسبه أن يوضح اختياره في تحديد ما يشمل المفهوم المعني، ولا سيما في حالة وجود خلافات أو تصورات مختلفة لحدوده، كما هو الشأن فيما يتعلق باللغة والثقافة والاعلام، وهي الاثافي الثلاث التي يقوم عليها قرح هذا البحث الذي نحاول- ما أمكن- أن نحجبه الوصول إلى درجة الغليان.

(أ) اللغة بوضعها المركبة الذهبية للاتصال:

من البديهي أنه يمكن تناول اللغة من جوانب متعددة، كالجانب اللغوي الخالص والنحوي والتركيبي، والجانب النفسي، والجانب الاجتماعي وغيرها، ولكن يظل الجانب الاتصالي من اللغة هو جوهرها ومسوغ وجودها وفيما يلي الخطوط الاساسية التي ارتضاها البحث الحالي بالنسبة لفهم طبيعة اللغة ووظيفتها:

١- اللغة منظومة من الرموز المنطوقة في الأصل، وفيها تتجلى قدرة الانسان على «صنع» الكلمات وصياغة الرموز التي تمثل ظواهر عالمه الخارجي وعالمه الداخلي على السواء.

وربما كانت هذه المقدرة من أهم ما يميزه عن سائر الكائنات، وان كان هناك من يعتقد بوجود لغات بأشكال مختلفة في عالم الحيوان.

٢- الكلمات تزود الانسان بقوالب يصب فيها أفكاره ومفهوماته وتصويراته، مثلما تزوده برموز تعبر عن معتقداته وقيمه.

٣- تحتل الكلمات كثيرا من التأويلات التي تختلف من شخص لآخر، مثلما تختلف باختلاف الظروف والأوضاع، اذ هناك عوامل اجتماعية واقتصادية وسلامية كثيرة تؤدي إلى تفاوت أفراد المجتمع في ادراكهم للغة وفي طرائق استخدامهم لها.

ملاحظة مبدئية:

لم يكن عنوان هذا البحث من اختياري، وليس لي يد في صياغته، وحين يكتب المرء من أجل مؤتمر ما، لا بد أن يوطن نفسه على الرضوخ إلى العنوانات الكبيرة أو الفضفاضة أو الغامضة.. اللهم لا احتجاج. وإنما أود أن أبرئ ذمتي منذ البدء بأنني حاولت أن أكتب في الموضوع كما هو، فإذا بي أسأل نفسي باستمرار: أية لغة، وأية ثقافة؟ وأي إعلام؟ وهل هو بحث نظري تأسيسي في الموضوع؟ وعند ذاك هل هو اختصاص الباحث الأدبي أم من اختصاص علماء الاتصال Communication وهل لدينا في البلاد العربية أمجاث في طبيعة كل من اللغة والثقافة والاعلام؟ حتى نبني عليها وننوع ونفرع؟

على أي حال بعد البحث والتقصي تبين لي أن موضوع «الاتصال» ما زال بعيداً عن ساحتنا العلمية ربما بشكل يفوق بعد الفيزياء النووية^(١)، وتبين لي أن مصطلح «الاعلام» في البلاد العربية غير محدد وغير متفق عليه، وتبين لي، ما كنت أبكيه من قبل، بل ان الأبحاث اللغوية أو اللسانية الحديثة ما زالت في مرتبة حرف الألف من الهجاء على الرغم من وجود بوادر جهود مشكورة... وهكذا وبالعطف قد تكون هذه معاذير للباحث، ولكنها- ومن وجه آخر- قد تشكل دافعا للارتياح، وبذلك تكون معاذير لمن اختار هذا الموضوع، وكذلك- ربما- لما قد يكون في البحث من تحبط لعدم وجود مراجع كافية له.

ثم إنني وجدت أنه، بسبب اتساع نطاق الموضوع وقر الدراسات، يحسن العمل على تثبيت بعض الأساسيات العامة، والابتعاد عن التطبيقات العينية ولا سيما تلك المتعلقة بالشهد العربي الراهن، لما يتطلبه ذلك من استقصاء ومسح واحصاء لا أملك- ولا تملك حتى الدوائر المختصة- أدواته ولا حصيلته.

مصطلحات وتحديدات متصلة بالموضوع:

يخطئ من يظن أن المنهجين وحدهم هم الذين ابتدعوا مبدأ تفحص المصطلحات قبل الدخول في مناقشة أي موضوع، ذلك أننا نحن- أهل الأدب العشوائيين- كان لنا إسهامنا في هذا المجال، ويمكن أن نستشهد بكتابات الشاعر المشهور، ت.س. اليوت التي كانت دائما تبدأ بتحديد العنوان والمصطلحات والكلمات المفتاحية،

المعنى الضيق الذي يشمل تهذيب العقل والنفس وتدريبها، والثاني الأوسع ويعني الحضارة أو المدنية.

والبحث الحالي معنى بالمعنى الأضيق للثقافة أي حصيلة التدريب والتهذيب المتعلقين بالعقل والعواطف والذوق وآداب السلوك أي مجمل الانتاج الفكري الأدبي الفني الذوقي لمرحلة معينة.

وهذا التعريف يمكن المرء منذ البدء ان ينبه إلى تجليات الثقافة غير محصورة بالكتاب وحده، أو ملكة القراءة الدسمة وحدها، كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، بل تشمل النشاط الفكري بجملة والنشاط الفني والأدبي والمسرحي والسلوكي وما يمت إلى ذلك بصلة.

وهذا المعنى تكون الثقافة من أهم مواد الاتصال في الحياة وكذلك من أهم وسائله.

(ج) الاعلام والاتصال:

أما كلمة «الاعلام» فتكاد تكون مصطلحا عربيا متفردا يصعب إيجاد ترجمة أجنبية له لانه يشمل جانبا من كلمة (اتصال) COMMUNICATION) وأخر من كلمة «معلومات أو أخبار INFORMATION» وشيئا بسيطا من كلمة RENSEIGNEMENT الفرنسية خاصة وهو بوجه خاص يعني الاتصال الجماهيري عن طريق الوسائط MASS MEDIA (حسب المصطلح الانكليزي)، ويخيل للمرء ان المصطلح موفق جدا في تحديد معنى مستقل لعملية «الاتصال الجماهيري» مما لا نجد في كلمة INFORMATION المستعملة بالانكليزية والفرنسية معا. ومن الملاحظ ان هذه الكلمة الأخيرة في السنوات الاخيرة تتجه أكثر فأكثر إلى الحقل الذي تتزايد أهميته يوما بعد يوم وهو حقل «المعلومات» بمعناها الخالص^(٧) ولان هذا المصطلح موفق ويسد حاجة جيدة نقترح التثبيت به، ولا بأس من إلقاء نظرة بسيطة على أصله اللغوي: جاء في المعجم الوسيط:

أعلم فلانا الخبر وبه: اخبره به.

وأعلم فلانا الامر حاصلًا: جعله يعلمه.

والغريب ان المعجم الوسيط، وهو معجم حديث، لا يذكر كلمة الاعلام بمعناها المصطلحي ربما لان الأقدمين لم يذكروها بهذا المعنى^(٨).

والجدير بالذكر انه تجري في معظم الأحيان مطابقة بين كلمة (الاعلام) وبين (الاتصال) وان كان واضحا ان الثانية أوسع مضموناً من الأولى. ويعرف (الاتصال) بأنه العملية التي يتم بمقتضاها تكوين العلاقات بين أعضاء المجتمع وتبادل المعلومات والآراء والأفكار والتجارب فيما بينهم، وللاتصال وجهان: خارجي بالنسبة للآخر وداخلي بين الانسان وبين نفسه، والاتصال الناجح مع النفس ومع الآخرين ينطوي على إمكانات النهاء والارتقاء للفرد والجماعة، ففي الاتصال تغذية لخبرات التعلم الباعثة على النمو، وتقديم السلوك

وتصحيح له بالتغذية الراجعة وإحساس خلاق بالذات وبالآخرين وبالجماعة الاجتماعية، وتوظيف لطاقات الفرد والجماعة في علاقات أدوار متبادلة ترتقي بتبادل التأييد والتدعيم، وبالتوجه الانحازي

٤- تشكل لغة الأفراد نوعا من (الرقيب الداخلي) يتدخل في تحديد ورسم علاقاته بالناس، بالإضافة إلى كونها «واسطة لفظية» يستخدمها في توصيل آرائه وأفكاره وانفعالاته.

٥- تحقق اللغة، بوصفها نظاما من الرموز، وظيفتين متكاملتين:

(أ) الوظيفة الاتصالية (وسيط للتفاعل بين الأفراد واستقبال المعلومات وبها).

(ب) الوظيفة التجريدية، اذ تعمل كوسيط لتكوين الأفكار- التي تجرد الواقع وتحتزله في شكل رموز تمكن الانسان من فهمه وضبطه بدرجة أفضل.

٦- وهكذا تكون اللغة مضمون الوعي الانساني الذي يبتدئ في الأنماط الراقية من السلوك الانساني، ويترتب على ذلك وجود ترابط شديد بين مقدر الفرد اللغوية ومقدرته على التعامل مع الحياة والاتصال بالآخر^(٣).

(ب) الثقافة من حيث هي مادة أساسية للاتصال ووسيط أيضاً:

ليس في دنيا المعرفة كلمة تثير الخلاف والنقاش وتعرض لتعريفات وتحديدات متواصلة ومتجددة مثل الثقافة، وفيما يلي ثلاثة مستويات من فهم الثقافة نوردتها هنا بغية تحديد المستوى الذي ينشده، هذا البحث:

أ - يحدد الاستاذ اسماعيل القباني الثقافة بأنها:

«أسلوب الحياة في الأمة والجماعة كلها، بجميع مظاهره، فهو ينصب على الكيفية التي يمارس الناس بها وجوه النشاط المختلفة في الهيئة التي يعيشون فيها: كيف يأكلون؟ ماذا يلبسون؟ وكيف يبشون مساكنهم؟ وبم يشتغلون لكسب قوتهم؟ وكيف ينتقلون من مكان إلى مكان؟ وكيف يتراسلون؟ وكيف يتزوجون؟ وكيف يدفنون موتاهم؟ وكيف يقضون أوقات فراغهم؟ وما هي أفكارهم ومعتقداتهم ودوافعهم؟ وما هي آراؤهم وفنونهم؟»^(٤)

ب- ويشير ريموند ويليامز في كتابه الذي ذكرناه آنفاً إلى الثقافة من خلال تحديدات مثل: حركة واسعة وعمامة في الفكر والشعور.. وتجريد ومطلق.. وبزوغ يمزج بطريقة شديدة التعقيد بين استجابيتين عامتين، الأولى الاعتراف بالانفصال العملي لبعض الفعاليات الفكرية والاخلاقية عن دافع نوع جديد من المجتمع، والثاني تأكيد تلك الفعاليات كميديان للنداء الانساني يتموضع فوق عمليات المحاكمة الاجتماعية العملية وفي الوقت نفسه يقدم نفسه كبديل موفق وجامع...^(٥)

ج- ومن بين ما يورده معجم وبستر المطول للقرن العشرين تحت مادة (ثقافة Culture) وهي كلمة مستعملة في معظم اللغات الاوروبية، بما فيها الروسية بصياغات مختلفة، ما يلي:

- تهذيب وتدريب العقل والعواطف وآداب السلوك والذوق وغيرها.

- حصيلة هذا التدريب للعقل والعواطف وآداب السلوك والذوق وغيرها.

-- مفهومات وعادات ومهارات وفنون وأدوات ومؤسسات الخ... شعب معين في فترة معطاة، أي الحضارة CIVILISATION^(٦).

وهكذا اذن يمكن التمييز بين معنيين متداخلين للثقافة أولهما

كأسلوب حياة مميزة للفرد وللجماعة^(٩).

ينظرون شزراً إلى لغة الاعلام وينظرون باحترام وجدية إلى لغة الثقافة، وفقاً لتصوراتهم طبعاً.

وما يفتأ باحثو الاتصال يذكرون بالخير تحديداً قديماً لعناصر الاتصال اقترحه هارولد لاسويل عام 1932 وهو:

ولعله مما يمكن ان يساعد في تثبيت فكرة عدم الاختلاف النوعي بين لغة الثقافة ولغة الاعلام ان يتذكر المرء انه من الناحية العملية لا تكاد توجد حدود فاصلة بين الحقلين، فالتقنيات مثلًا في معظمها مشتركة (الصحافة، الطباعة، الكتب، المذياع، التلفاز الخ..)

من يقول؟ ماذا يقول؟ لمن يقول؟ لماذا يقول؟ وبالأول يعني المرسل من فرد أو جهة وبالثانية مادة الاتصال ومحتواها، وبالثالثة المرسل اليه وطبيعته، وبالرابعة التأثيرات المطلوبة ونوع الاستجابة. وبالطبع يضاف إلى ذلك كله اللغة التي هي أداة الاتصال الأساسية، وتقنيات الاتصال من صحافة وكتاب ومسرح وسينما وغيرها ويسلك الاتصال عادة قناتين رئيسيتين:

ثم ان ممارسة كل من الفعالتين الثقافية والاعلامية تبدأ في تقنيات مشتركة ولا سيما في الصحافة، والادباء والمفكرون بالذات غالباً ما يبدؤون كتاباً في المجلات والصحف وتتراوح كتاباتهم في حالات كثيرة بين المادة الثقافية والمادة الاعلامية، وقد يتقلبون بين الحالتين، ويقدم د/ عبدالعزيز شرف قائمة طويلة من هؤلاء بين عرب وغير عرب، ومنهم مثلاً: دانييل ديفو، وجوزيف أديسون، وسويفت، وديكنز، وناكري، وكبلنغ، وارنولد بنيت، وهـ. ج. ولز، وجورج برناردشو.

الاتصال عن طريق الوسائل، والاتصال بالجهاير والاختبار مبدأ أساسي في الاتصال، ذلك ان الوسائل تنمو نحو اختيار جهايرها، والجهاير تختار من بين الوسائل.

ومما يتعلق بالتحضير أو الاعداد الاعلامي، يجري التمييز عادة بين ثلاثة مستويات: PERSUASIVE
١- التحرير الاتقاعي.

وفي البلاد العربية هناك قائمة موازية تتألف فيها أسماء كتاب كبار مثل: رفاعه الطهطاوي، والإمام محمد عبده، ومحمد ابراهيم المولحي، وعبدالله نديم، وفريد وجدي، وأحمد لطفي السيد، ود/ محمد حسين هيكل، ود/ طه حسين، وعباس محمود العقاد، وابراهيم عبد القادر المازني، وتوفيق الحكيم^(١٢).

ومثاله الاعلان والدعاوة والخطابة السياسية.

٢- التحرير التعبيري EVOCATIVE

ويشمل الادب والثقافة والكتابة الذاتية.

ويكاد ينطبق هذا الحكم على جميع الكتاب المعاصرين شرقاً وغرباً، ويكفي ان يتساءل الانسان عن عدد الكتاب الذين ينتمون في وقت واحد إلى كل من اتحاد الكتاب والصحفيين في تلك البلدان التي تفرق بين النقابتين:

٣- التحرير الإعلاني أو الاخباري INFORMATION .
ويشمل الخير وغيره من الكتابات ذات الطابع الموضوعي^(١٠).

وليست هناك حدود فاصلة بين هذه المستويات، ويمكن التمييز بينها من خلال السمة الغالبة أو المفترضة^(١١).

٣- دور اللغة في الاتصال الثقافي والاعلامي:

(أ) أساس مشترك للثقافة والاعلام:

ومن الناحية العملية أيضاً نحن نعرف ان معادلة كل من الاعلام والثقافة لا تخرج عن الخط العام التالي:

يستشهد دارسو «الاتصال» إلى مادة بقول مهم لمارشال ماكولان من أجل التدليل على أهمية دور اللغة في عملية الاتصال ومفاد هذا القول: «ان الكلمة المنطوقة تستثير الحواس الخمس في المستمع بشكل درامي».

| | | |
|--------|---------------|---------|
| المرسل | تقنية الاتصال | المتلقي |
| | مادة الاتصال | |

وكما انه في الاعلام لا حياة لإرسال دون استقبال فمن الخطأ الاعتقاد ان المادة الثقافية يمكن أن تعيش دون استقبال. واذا كان من فرق في المعادلة بين الحقلين فانه يمكن القول ان التركيز في الثقافة يكون على المرسل في حين ان مركز الثقل في الاعلام يكون عند المتلقي، مما يسبب - بالنسبة لموضوع اهتمامنا - فرقا كبيراً في طريقة استخدام اللغة.

ومن المعروف ان اللغة قد تكون أداة اتصال مستقلة كما في الخطاب والصحافة وقد تكون أداة رئيسية من ضمن أدوات اخرى كما في الراديو والتلفزيون، وقد رأينا سابقاً عند التعرض لطبيعة اللغة ووظيفتها ان الاتصال يؤلف جوهر وظيفتها.

(ب) الانشاء الثقافي وخواصه اللغوية:

ان هذه الملاحظة الاخيرة هي التي يمكن ان تقودنا إلى تلمس الفرق في الوظيفة اللغوية بين حقلي الثقافة والاعلام.

وفيما يتعلق بالثقافة والاعلام لم نجد في تعريفها ملكتان مختلفتان تماماً أو متباينتان، وكذلك وجدنا ان الجانب الاتصالي قوى جدا وان كان أكثر بروزاً في الاعلام لانه يكاد يكون عملية الاعلام نفسها، كما وجدنا ان اللغة أداة مشتركة بينها، ويمكن أن نضيف هنا انه على الرغم من فروق معينة في الوظيفة اللغوية في كل من الحقلين يصعب التفكير بوجود اختلاف نوعي بين لغة الثقافة ولغة الاعلام... وقد تندرج معظم الفروق تحت عنوان الدرجة لا النوع كما سوف يتضح بعد قليل.

فالانشاء الثقافي، سواء أكان عقلياً (دراسة) أم ذاتياً (إبداع ادبي) ينبثق أصلاً من المرسل (الاديب أو الدارس)، ويرضي حاجة ذاتية داخلية نسبياً، وينطلق من قنوات فردية أو ذات طابع فردي (أي اجتماعية مصبوعة بصبغة فردية - أو انعكاسية) وفي الغالب لا يهتم بالتكيف حسب رغبة الآخر، بل على العكس يفترض

وربما كان في هذا التأثير صدمة لكثير من الناس الذين يعتقدون بالبدهة ان لغة الاعلام شيء ولغة الثقافة شيء آخر، وربما

تقرب الآخر (المتلقي) منه بفضل خواصه الذاتية، ويكون النص الثقافي الابداعي ذا طاقة رمزية غنية ومتداخلة، ويصعب فهمه أو استيعابه أو تذوقه من خلال فرضية رمزية واحدة، واحيانا تكون له مستويات متعددة، وتساعد لغته الموحية والفسيجية وغير المحددة على إضاعة المعنى الواحد، ويرافق بعض الدارسين المعاصرين، مثل رولان بارت، بضرورة الاعتراف بتعدد مستويات النص الابداعي وعدم ضرورة تبني مستوى واحد في تناوله.

وما دامت القيمة التعبيرية في النص الثقافي هي الأولى والمسيطره فانه يترتب على ذلك ان تنحو لغة النص منحى خاصا. ففي الاعمال التحصيلية والدرسية تنحو اللغة باتجاه الدقة والضبط، ولكنها ايضا تحمل طاقة رمزية لانها تعبر من خلال مصطلحات وكلمات مفتاحية متفق عليها.... أما في الأعمال الابداعية فهناك الطاقة الجمالية الخاصة، وهناك الخيال المرنج، وهناك الانتقاء اللفظي والتصرف ببدلول الالفاظ، وهناك ما يمكن ان يكون إلى حد ما «اللغة الخاصة» وان كانت بعض المناهج، كالبنوية، تنفي ذلك. ولكن الاهم من ذلك كله في لغة الثقافة الحديثة ان اللغة قد لا تكون مجرد تعبير أو وظيفة أو أداة اتصال، أي مقصودة لغيرها، بل قد تكون مقصودة لذاتها... ففي الفن الحديث والادب الحديث تراجعت كثيرا الاسئلة المتعلقة بموضوع العمل أو معناه أو مغزاه، فالقصيدة هي ما تكونه- كما يقول ت.س. اليوت، وليست معناها ولا مغزاه ولا نثرها، واللوحه لا تحمل أساساً فهي العمل رقم أو رقم كذا. ولو سئل الفنان عن موضوعها لما حار جواباً - كما هو الشأن في الاتجاهات السريالية والحداثية. ان الفن والادب يتقربان من الموسيقى من حيث هي حالة وجد مقصودة لذاتها. وقد تجاوز اليوت ذلك فلجأ إلى موسيقى الجاز وكذلك الحيل السينمائية في قصيدته المعروفة «أغنية حب. ح. الفريد يروفوك». وجيمس جويس استعمل لغة خاصة جدا في «يوليسيز». أما في «يقظة فينيغان» فقد نحت لغة فريدة من نوعها مؤلفة من تسع وستين لغة ولهجة. ونحن لم ننسَ بعد تجارب فيرلين في جعل الشعر موسيقى خالصة، ولا تأكيدات مالارمييه بان اللغة يجب الا تستعمل الا بشيء من الخطأ واذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك يمكن أن نتذكر شاعرنا العربي أبا تمام الذي يروي أنه سئل: لم تقول مالا يُفهم؟ فأجاب السائل: لم لا تفهم ما يقال. أي ان الثقافة تفتقر في الآخر ان يجهد للوصول إليها وتتخرج من ان تكون لقمة سهلة. كذلك نشهد في عصرنا الحاضر تجارب القصائد المسموعة والمغناة، أي اللغة المنطوقة المقصود بها جرسها ورننتها دون ان تكون واسطة لشيء محدد.

وهذا كله يعني ان لغة الادب الابداعي الحديث تكاد تنحو منحاهما الخاص، وتشكل غاية محدد ذاتها، وذلك بعد ان ضمرت فيها الغاية، وضمير دور المتلقي، وبقيت المسألة محصورة في المرسل وحاجاته التعبيرية.

ولكن بالطبع يجب الا ينساق الانسان وراء هذه التأكيدات إلى ما لا نهاية ويبنى عليها استنتاجات بعيدة المدى أو تعميقات شاملة... فان هذه التجارب التي ذكرناها وان كانت تتمتع بدوي كبير وبريق خاص، لا تشكل الجانب الاكبر من المشهد الثقافي،

وحق لو كانت تشكل جانبا مهما فيجب الا ينسى المرء ان حصيلة الادب الحديث لا تتمتع بما تحب ان تعطيه للقرأى من انطباع بالعفوية والتلقائية... فورا ذلك يد صناع تحمك عليها وربما تنجح عادة في التوثيق بين كفاءة التعبير وكفاءة التأثير، ذلك انه مهما طال الحديث عن مركز الثقل التعبيري لا يجوز ان ينسى المرء، انه لا الادب الحديث ولا الفن ولا الثقافة ولا أي نشاط ابداعي يمكن ان يعيش اذا لم ينل استهواء الطرف المتلقي بشكل أو بآخر.

ولكن يبقى صحيحا ان كل هذه التجديدات الادبية والفنية التي ذكرناها لا تحتل من الحصيلة الكبرى للادب والثقافة في عصرنا. واذا نحن تجاوزنا الغرب وبدعه وفنونه (وتقليعاته) وغرائبه وتجاريبه اللاهثة وراء الادهاش، نجد ان المشهد الادبي في سائر العالم ما زالت تحكمه علاقة معتدلة من حيث استخدام اللغة كأداة ايضالية من جهة وكسحر بيان قائم بذاته من جهة أخرى. وما نظن الا ان ذلك سيبقى إلى امد طويل.

ج- الانشاء الاعلامي وخواصه اللغوية:

ربما تنتج الفروق بين الانشاء الثقافي والانشاء الاعلامي عن اختلاف مركز الثقل في معادلة الاتصال. واذا كان التركيز في الثقافة حول المرسل وحاجته إلى التعبير او التنفيس أو البث المعرفي فان التركيز في المعادلة الاعلامية يكون حول المتلقي الذي هو الجمهور، ان الاعلام هو بث مادة معينة للجمهور. ومقياس نجاحه هو الاستجابة على أوسع نطاق من قبل الطرف الآخر، ولكن على سبيل الاستجابة المقيدة أي التقبل النوعي بطبيعة المادة التي يبثها المرسل سواء أكانت سياسية أو تجارية اقتصادية أو ترفيهية.

ومن هنا تكون لغة الاعلام دائما محكومة بتصور مدى استمداد الجمهور للاستجابة ومقدرته على الاستيعاب النوعي. ولذلك ومهما كان لدى المرسل من اختيارات لغوية وثروة دلالية ورمزية فانه مضطر للتعرف والانتقاء وفقا لصورة الجمهور المقصود بالمادة الاعلامية. وبما ان المقصود عادة هو اتساع قاعدة المتلقي فان اللغة تنحو منحى السهولة والبساطة وقرب المأخذ والبعد عن التعقير والاعواء الظاهري، مما يفترض أنه يتناسب مع المدركات العامة للجمهور. وبالطبع لا بد من سلسلة من الرموز المؤثرة والمثيرة، تماما كما هي في لغة الثقافة. ولكن تتحكم بطبيعة هذه السلسلة تحكما تاما قدرات الجمهور المتلقي ومستواه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي.

يضاف إلى ذلك ان لغة الاعلام تخضع للحظة الراهنة أو الشرط الزمني أكثر مما تفعله لغة الثقافة. ان لغة الثقافة تحاول دائما ان توفق بين ما هو ثابت وبين ما هو متغير، تحاول ان تقيم توازنا خلافا بين اللحظة وبين الدوام. أما لغة الاعلام فهي عابرة وزمنية ومقيدة بالرموز الدارجة وبالمتطلبات النفسية أو المادية خلال لحظة معطاة من الزمن، لذلك تبحث عن الرائج أكثر مما تبحث عن الأصيل، أو التائق لذاته، أو الكلمة الحق Le Mot Juste ولاسيا في المجالين الاتقاعي والاخباري.

وكل هذه الخواص جعلت المثقفين لا يشعرون بالاطمئنان إلى مواقف الاتصال الجماهيري وأساليبه ولغته... واللغويون المتشددون مثلا يخشون دائما من التأثير السلبي للاستعمالات الاعلامية في لغة

لآفات المسخ والتضخم واللفظية، وتنفرط رموزها فلا تحمل للمتلقي الا النزر اليسير من الرسالة الاعلامية أو الثقافية على عكس ما يتصور أولو الشأن من القائمين على الإرسال.

وتعد الاعراض السابقة من أخطر الآفات التي تنخر جسم اللغة العربية والاعلامية في عصرنا. ان هذه اللغة لم تدرس بعد وفق منهج علمي، ولكن لو سمح الانسان لنفسه ان يحكم من خلال الاستنتاجات الظاهرية فانه يمكن أن يؤكد ان لغة الاعلام العربي- لأسباب عديدة- بدأت تتجرد من فاعليتها باضطراد. والحظورة في الامر ان لا مصادقية الموقف الاعلامي العربي أخذت تسحب ظلها على فعالية الاداة اللغوية بالذات، إلى حد انه لو تخيلنا حدوث تطور نحو الافضل أو انقلاب مفاجئ في الموقف الاعلامي العربي فاننا ربما نواجه عجز الادلة اللغوية عن توصيل طاقة هذا الموقف، وينطبق هذا الحكم، بوجه خاص على وضع الاعلام السياسي الذي هو في مرحلتنا الراهنة أخطر أقنية الاعلام.

ولكن هذا حديث آخر له وجهته المختلفة التي تقتضي أسلوبا في التقرب مبينا على المسح والاستقصاء ورصد الظاهرة، والمرجو أن تتناقله الاقلام المخلصة بمنهجية علمية ودأب وشجاعة.

الهوامش

١ - ربما كان الاستثناء الاكثر أهمية من هذا الحكم هو المجد النبيل الذي بذلته مجلة «عالم الفكر» في اصدار عدد خاص عن الاتصال: المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، يوليو- أغسطس- سبتمبر ١٩٨٠. وقد استند هذا البحث فيا يتعلق بتحديد المفاهيم الأساسية (اللغة) (والاتصال) بوجه خاص على أبحاث العدد، وأرجو أن أذكر بوجه خاص كلا من أبحاث الاساتذة الدكتور أحمد أبو زيد- وطه محمود طه- وطلعت منصور- وعبد العزيز شرف.

٢ - انظر WILLIAMS RAYMOND

CULTURE AND SOCIETY 1780

1950 APELICAN BOOK

ENGLAND 1983

٣ - للتفصيل يمكن مراجعة الصفحات التالية من عدد «عالم الفكر» المذكور سابقا: ص ٤، ٥، ١٢٤/١٢٥.

٤ - النص مثبت في بط منذ القديم ولم اتبين مرجعه، وهو على أي حال، نموذج لذلك الفهم الواسع لكلمة (ثقافة) الذي يطابقها مع كلمة (حضارة) تقريبا.

٥ - انظر ص ١٧ من كتاب ويليامز.

٦ - انظر المادة في: WEBSTERS NEW THENTIETH CENTURY DICTIONARY

٧ - انظر بهذا العدد المقال التالي: 1978 USA.

CLEVELAND HARLAN

INFORMATION ASA RESOURCE

INDIOLOGUE 2/1980 NO 60

٨ - ليست هذه مصيبة المعجم العربي؟

٩ - «عالم الفكر» مذكور سابقا، ص ١٥٥.

١٠ - للتفصيل انظر المصدر السابق ص ١٦٦ - ١٦٧ بوجه خاص.

١١ - المصدر السابق ص ١٦٥.

١٢ - المصدر السابق.

الناشئة والجمهور أما غير اللغويين من المثقفين فهم سيكون على القيم الاخلاقية والفنية والجمالية التي يهدرها الاعلام السياسي والتجاري والترفيهي لانه يقدم مواد اعلامية ضحلة وسطحية وتافهة ويخلق (الرجل الجماهيري) المصطنع الفارغ المسلوقة محاكمته الضائعة ملامح شخصيته... كذلك يأخذ المثقفون على وسائل الاتصال الاعلامي انها تصرف الجمهور عن وسائل الاتصال الثقافي الأكثر جدية والأبعد غورا والارفع فنا ولغة.

ولعله من الانصاف القول ان هذه السلبات لا تدخل بالضرورة في أصل الموقف الاعلامي وانما هي الحدار في التطبيق له الكثير مما يشبهه في ثقافة المناسبات، مما سنشير اليه بعد قليل.

كما ان المسألة تختلف باختلاف المجتمعات والقيم المسيطرة فيها والايديولوجيات التي تتحكم بها. ففي المجتمعات الاستهلاكية المفتوحة هناك تنافس محموم على تقديم ما تحب الجماهير الواسعة أن تقرأه وتشاهده وتسمعه، ومن الناحية اللغوية الخالصة هناك تهافت على العبارات المبتذلة والمجلع الغربية والمفردات المهجينة، وهناك تصيد لأسوأ افرازات الاستعمال اللغوي في الزوايا المحرومة أو الشاذة أو المهملة من المجتمع أما في المجتمعات التي تبني ايديولوجيات اجتماعية أو اخلاقية أو دينية فهناك حرص على تقديم ما يجب استيعابه للوصول إلى سوية معينة، أو احتذاء قدوة حسنة، أو العودة إلى التمسك بمثل قائم في الماضي، أو للتطلع باتجاه نموذج مستقبلي منشود، وفي حالات كثيرة من هذا النوع يقترب الموقف الاعلامي من الموقف الثقافي، وينشأ حرص شديد على الانتقاء والرقى، ويمتد هذا الموقف إلى الاستعمال اللغوي فيصبح الحفاظ على الحد الأدنى من السلامة اللغوية أو الدقة أو التجويد هدفاً في اطار المظلة الايديولوجية السائدة.

على ان التجارب الاجتماعية أو بالاحرى تجارب المجتمعات، لا تخضع دائما لقوانين واحدة. كما انه كثيرا ما يخون التطبيق النظرية التي يفترض ان يكون خادما لها. ففي مجال الاعلام السياسي مثلا، حتى في دول تعلن عن أهداف نبيلة لخدمة أوسع قطاع من الجماهير. نجد أن الشعارات والمبالغات والتعميمات تغلب على الموقف الاعلامي وتفرغه من أي مضمون وتركه مثل طبل فارغ، له دوي مزعج ليس له مغزى ولا طرف ويتبع ذلك ان اللغة الاعلامية تفقد حساسيتها وأعوائها ورمزيتها وبالتالي تأثيرها وتستهيل إلى ألفاظ شبيهة بالجثث الهامدة. ويؤدي ذلك بدوره إلى أضعاف الحساسية الجماهيرية للمادة الاعلامية وأحيانا الثقافية التي تقدم له.

بين أسوأ من ذلك أحيانا تحاول الثقافة أن تتخذ منحى تبشيريا- أحيانا عن قناعة ذاتية والتزام داخلي، وأحيانا تجاوبا مع تنظيم اجتماعي أو سياسي أو مذهبي أوسع.. وسرعان ما تقود التبشيرية إلى موقف ديماغوجي أو شعاري لا يختلف عن الموقف الاعلامي في كثير من الاحيان. وبالضبط يجب الا يعني هذا الحكم نفي الابداع والتألق عن كثير من الاعمال الابداعية أو التحصيلية الملتزمة. نحن هنا نتحدث عن تجارب واقعية في التطبيق يعرفها القاصي والداني، سواء على مستوى البلاد العربية أم على مستوى بلدان أخرى كثيرة في العالم. وفي هذه الحالات بالطبع تتعرض اللغة